معالم الدراسة القرآنية عند تمام حسان في ضوء قواعد التفسير وأصوله* من خلال (كتابيه البيان وخواطر)

د.اليزيد بلعمش

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة(الجزائر)

el-yazid@hotmail.com

البريد المهني: y.belameche@univ-emir.dz

الملخص : يعد تمام حسان أحد أقطاب الدراسة اللغوية الحديثة، فقد أثراها بالعديد من الأفكار والآراء التي كان لها الأثر البارز في الساحة العلمية عامة واللغوية خاصة، ومما قوى أثر هذه الآراء التي جاء بها تفاعله معها بالدراسة التطبيقية التي شملت في كثيرا من جوانبها البيان القرآني.

ونحن نعلم أن لتفسير النص القرآني وقراءته نمطية خاصة يتميز بها عن باقي النصوص الأخرى. قد سطرها لنفسه وحذا حذوها علماؤنا في الأزمنة المتقدمة. وهذا يعني أن أي أفكار جديدة في تحليل النصوص وقراءتها تقتضي من أصحابها تطويعها للمنهج العام في قراءة النص القرآني وتفسيره، وهذا يضعنا أمام إشكال يفرض نفسه علينا؛ ألا وهو كيف تعامل تمام حسان مع النص القرآني بمنهجه اللغوي؟ وما هي المعالم التي سار بها في قراءته البيانية للنص القرآني؟ وإلى أي مدى استطاع تمام أن ينير بعض المعاني ودرر القرآنية الكامنة فيه؟ ... هذا ما نحاوله من خلال النظر في كتابيه الأول: البيان في روائع القرآن –دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني– جزآن ، والثاني: خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم.

1- المنهج العام للدراسة القرآنية عند تمام حسان:

لقد نبه الدكتور تمام حسان على منهج دراسته للقرآن الكريم في أول كتابه "البيان في روائع القرآن" – وهي عادة جرى عليها بعض المفسرين منذ القديم-، وذلك حين قال: "ليست هذه الدراسة محاولة لتفسير القرآن الكريم تفسيرا لغويا وأدبيا، وليست محاولة أخرى للكشف عن إعجاز القرآن إعجازا لغويا أو أدبيا، فإذا صادف القارئ في هذه الدراسة تفسيرا غير مألوف لأحد الألفاظ أو التراكيب ، أو صادف القارئ ظاهرة تنم عن الإعجاز اللغوي لأساليب القرآن الكريم، فإن المؤلف لم يقصد إلى الكشف عن ذلك قصدا، فلقد كان اهتمام المؤلف منذ البداية متجها إلى الغايات العملية التي أملت عليه أن يغشى ساحة القرآن

متأملا بعين اللغوي وقلب الأديب ما اشتمل عليه بناء النص القرآني من مباني اللغة ومعاني الأدب"[1]، ثم وضح فيما يلي الغاية العملية التي حدت به إلى هذه الدراسة وهي أنه لما فُتِح قسم التخصص اللغوي والتربوي بجامعة أم القرى، وبعد تحديد مقرراتها تولى هو تدريس مادة "دراسات لغوية وأدبية في القرآن"[2] ، فكانت حافزا له على دراسة القرآن الكريم.

والذي نستنتجه من هذا النص أن أهم العناصر الذي بنى عليها تمام دراسته للقرآن تتمثل فيما يلي:

1- أنه لم يكن مفسرا لا قصد تفسيرا .

2- أنه لم يكن باحثا في الإعجاز .

3- أن الدافع لهذه الدراسة هي غاية عملية: تمثلت في التعليم.

4- التوسل في هذه الدراسة كان بعين اللغوي وقلب الأديب.

وقد أكد هذه الأفكار في الصفحة الموالية بقوله: "وهكذا أمسكت بالمصحف الشريف لأقرأه قراءة متأنية، ولأقيد ملاحظاتي اللغوية والأدبية على حواشي صفحاته، تمهيدا لما يتبع ذلك من الجمع والتبويب، وهكذا كانت مقاصد الدراسة في بدايتها عملية الطابع تسعى إلى التعليم والتطبيق لا إلى العلم والنظر، ثم تحولت المقاصد بعد ذلك إلى الطابع العلمي بإغراء الثراء الذي بدا في تركيب القرآن وأسلوبه"[3].

فواضح من هذا، أن المسلك الذي سلكه تمام في هذه الدراسة هو المسلك اللغوي، وهو مسلك مطروق منذ زمن بعيد، ويرجعُ بعضُهم بدايتَه إلى الصحابي الجليل عبد الله بن عباس –رضي الله عنه–[4]، ثم سار خلفه الكثير العلماء، وقد اتسمت أعمال في هذا المجال بالكثرة والتعدد، والسبب في ذلك يرجع —بعد أهمية اللغة في التفسير– إلى اختلاف المناهج في استخدامها والتفنن في استثمارها. وفي العصر الحديث قفز الاهتمام بهذا الجانب قفزة كبيرة، خاصة بعد أن انماز للغة علوما عدة، فكانت منها ما يركز على الجانب النحوي، ومنها ما يركز على الجانب البلاغي، ومنها ما يركز على الجانب الأدبي الاجتماعي... وغيرها. هنا نتساءل بأي نمط لغوي سار تمام في دراسته هذه؟ .

والإجابة عن هذا السؤال ، يمكن أن نتلمسها من جانبين اثنين:

*** مداخلة مقدمة للمشاركة بها في الملتقى الوطني الأول حول "قراءة النص القرآني في ضوء المذاهب النقدية المعاصرة بين الضوابط الشرعية والانفتاح العلمي/الفلسفي" يومي 10/09 نوفمبر 2010 بجامعة الصديق بن يحي–جيجل.**

[1] تمام حسان، البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، ط2، 1420هـ، (ج1، ص7).

[2] المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

[3] المصدر نفسه (ج1،ص8).

[4] عبد القدر السعدي، أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام الشرعية من آيات القرآن التشريعية، دار عمار،عمان ط1، 1421هـ، ص85 . وانظر أيضا : مساعد بن سليمان الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ط1، 1422، ص35 ومابعدها.

1- ذكر في المقدمة مجموعة من المفاهيم لبعض المصطلحات التي نبه إلى أنه يكثر دورانها في الدراسة، وتمثلت هذه المصطلحات في : المبنى أو البنية، المعنى الوظيفي ،المعنى المعجمي، القرينة اللفظية، القرينة المعنوية، قرينة السياق، الرخصة، الأسلوب العدولي، تعدد المعنى بحسب الأصل، تعدد المعنى بحسب النقل[1]. حينما بحثنا عن الإطار النظري الذي أخذت منه، وعن الإطار المعرفي الذي تداولت فيه وجدناه نظرية القرائن التي جاء بها في كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها"[2].

2- وإذا ما تصفحنا الكتابين –موضوع الدراسة- وجدنا أن الكتاب " البيان " قد تناول فيه عرضا مفصلا لكل قرينة وصور تمظهرها في القرآن الكريم، فقد ابتدأ بقرينة الإعراب ثم البنية ثم الرتبة ... وهكذا، فقد كانت فصوله كلها "تدور حول القرائن والنمط التركيبي والصحة وغير ذلك من جوانب العرف اللغوي"[3]، هذا في عشرين فصلا، خمسة عشر منها في الجزء الأول، وخمسة في الجزء الثاني، أما الفصول الثامنة الأخيرة من الجزء الثاني، فإن منهجَ تناولِها قريب جدا من منهج التفسير الموضوعي، حيث عرض فيها للجانب الخلقي في القرآن ثم لأسلوب دعوته، وموضوع ثبوت أو نفي قصة الغرانيق، ثم تأملات في سورتي الرحمن والواقعة، وقصة يوسف من خلال السورة، ليختمها في الأخير ببيان الهيكل البنيوي لبعض السور كالفرقان والشعراء والنمل ... الخ . أما كتاب "الخواطر" فقد سار فيه على النهج الذي سار به في الشطر الأول من كتاب البيان، وقد نص هو على ذلك في مقدمته، حيث قال: "هذه الدراسة من قبيل ما تضمنه كتاب البيان في روائع القرآن"[4] .

من هنا نخلص إلى أن الدكتور تمام حسان قد سعى في هذه الدراسة القرآنية إلى تطبيق شامل وواسع وكامل لنظرية القرائن على القرآن الكريم، ولعل السبب الذي جعله يختار القرآن على غيره من النصوص ما يلي:

1- أن القرآن مدونة واحدة متنوعة وواسعة، فيها كل أنواع الظواهر اللغوية والتركيبية، كما فيها موضوعات متنوعة ومختلفة.

2- أن القرآن هو المدونة الواحدة التي تشهد لقوة قرب النظرية بالعربية وبعدها عن العربية، وذلك لأنه القرآن وثيق الصلة بالمسلمين في كل زمان ومكان. وربما تكون هناك أسباب أخرى داعية لذلك. ومهما يكن من أمر فإن هذا يسلمنا إلى سؤال آخر، ألا وهو: وهل انسجمت هذه النظرية مع النص القرآني ؟ وهل توافقت مع قواعد التفسير وأصوله ؟ وأين تكمن مظاهر هذا الانسجام والتوافق ؟ هل أضافت شيئا

---

[1] البيان في روائع القرآن(ج1،صص8-14)

[2] طبع بدار عالم الكتب- القاهرة، ط3، 1418هـ.

[3] البيان (ج1،ص15).

[4] تمام حسان، خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم، عالم الكتب- القاهرة، ط1، 1427هـ، ص4.

عجز النحو العربي عنه؟ سنحاول فيما يلي أن نجيب على بعض هذه الأسئلة من خلال التعرض لبعض النماذج من الدراسة، لكن قبل ذلك لا بأس أن نتعرف على محتوى نظرية القرائن.

1- 1- المعالم الكبرى لنظرية القرائن : سنحصر هذه المعالم في ثلاث أمور: المنطلقات المعرفية التي اعتمدتها والهيكل المعرفي للنظرية، والقيمة العلمية التي حققتها أو سعت إلى تحقيقها.

1- المنطلقات المعرفية التي انطلقت منها: اعتمد تمام حسان في بناء نظريته على إعادة صياغة النحو العربي وفق المنهج الوصفي الذي تشبع بدراسته في الجامعة الإنجليزية أيام طلبه، يقول متحدثا عن هذا "ووفقت في هذا الكتاب الذي أراه جهدا متواضعا إلى استنباط منهج للنحو العربي يحمل آثار المذهب البنيوي، ولكنه لا يلتزم به التزاما مطلقا، فلم أعتمد في تفكيري في مادة هذا الكتاب إلا على اجتهاد خاص في ضوء تكويني الشخصي في ظل أفكار النحاة العرب وما تعلمته من الدراسات الحديثة، وقد اهتديت في هذا الكتاب إلى أفكار نافعة في فهم النحو العربي وتيسيره وتفسير ما أحب النحاة وأوضعوا في الخلاف حوله"[1]. إذن: فهي منطلقة من إعادة قراءة النحو العربي في ضوء المنهج الوصفي.

2- الهيكل المعرفي للنظرية: تقوم نظرية القرائن على النظر إلى اللغة على أنها تتألف من شقين اثنين أساسين ومتكاملين هما: المبنى/الشكل، والمعنى. ولا يمكن في التحليل أن نهمل أيَّ واحد منهما، بل لابد من اعتبارهما معا أثناء الدراسة، ولا يمكن أن نهتم بجانب على حساب الآخر، هذا مع الاعتراف بتقسيم اللغة إلى مستويات (أنظمة) في الدراسة، في حين أن هذه المستويات تخدم بعضها بعضا لتكشف في النهاية عن النظام العام للغة، فالمستوى المعجمي –وهو لا يشكل نظاما- يقدم المادة التي يتم كشف عن نظامها الصوتي والصرفي، ثم تقدم نتائجهما للنظام النحوي والذي هو عبارة عن نظام من القرائن، موزعة كما يلي :

- مجموعة من القرائن اللفظية : وتكشف عن المبنى أو عن الجانب الشكلي في اللغة، وتمثلت في ثماني قرائن، وهي: الإعراب والرتبة والصيغة، والمطابقة والربط والتضام والأداة والتنغيم.
- مجموعة من القرائن المعنوية: ويتم بها دراسة الجانب المعنوي للغة، وتضم خمس قرائن كبرى وهي: الإسناد والتخصيص والنسبة والتبعية والمخالفة.

لابد أن تتضافر هذه القرائن لتؤدي دورها في التحليل.

---

[1] تعليم النحو بين النظرية والتطبيق، ضمن مقالات في اللغة والأدب للدكتور تمام حسان، عالم الكتب-القاهرة، ط1، 1427هـ، (ج1،ص79).

3- القيمة العلمية لنظرية القرائن: لقد رأى تمام في نظريته هذه[1]، أنها محاولة صالحة لإعادة بناء النحو العربي، وذلك لأنها امتازت بـ:

1- انبناءها على استقراء اللغة العربية، فهي نابعة منها، وليس حالها كحال الأفكار الغربية المستورة.

2- إنها خلصت النحو العربي من شوائبه ومصادر الشكوى منه، إذ ألغي القول بالعامل الذي كان يفرض في كثير من الأحيان أمورا خارجة عن النطاق اللغوي، وعُوِّض بالقول بتضافر القرائن.

وبعد هذا العرض الوجيز جدا، والذي أوضحنا من خلاله المعالم العامة لنظرية القرائن، نعود إلى سؤالنا السابق، ألا وهو: وهل انسجمت هذه النظرية مع النص القرآني؟ وهل توافقت مع قواعد التفسير وأصوله؟ وأين تكمن مظاهر هذا الانسجام والتوافق ؟ هل أضافت شيئا عجز النحو العربي عنه؟.

2- تطبيقات نظرية القرائن على القرآن الكريم في ضوء قواعد التفسير وأصوله:

وكما ذكرت سابقا. لقد أكد المفسرون على ضرورة اللغة وأهميتها في تفسير كلام الله تعالى، وشددوا في ذلك تشديدا قويا، فقد رُوى عن مالك أنه قال: "لا أُوتَى برجل يفسر كلام الله، وهو لا يعرف لغةَ العرب إلا جعلته نكالا"، وقال مجاهد : "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب"[2]، بل وجعلوا اللغة أحد المصادر المستقلة في معرفة معاني القرآن، فقد رُوي عن ابن عباس أنه قال: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا اللهُ تعالى ذكرُه"[3]. ولا يخفى عليك أنَّ للغة إسهام كبير في الوجه الثاني والثالث، فرجع الأمر كله إلى العلم باللغة. ولهذا ذهبوا إلى أن كل معنى لم يكن جار على سنن العرب فهو باطل، يقول الشاطبي : "كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي، فليس من علوم القرآن في شيء، لا مما يستفاد منه، ولا مما يستفاد به، ومن ادعى فيه ذلك، فهو في دعواه مبطل"[4]. ويقول أيضا: "إن القرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة، لأن الله تعالى يقول: "إنا أنزلناه قرآنا عربيا" (يوسف2). ... إلى غير [من الآيات]. ذلك مما يدل على أنه عربي وبلسان العرب، لا أنه أعجمي ولا بلسان العجم، فمن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب

---

[1] المرجع نفسه(ج1،ص81).

[2] الزركشي(محمد بن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث-القاهرة،1427هـ (صص204، 205).

[3] المرجع نفسه (صص426، 427).

[4] الشاطبي(أبو إسحاق إبراهيم بن موسى)، الموافقات، ضبط وتح: مشهور بن حسن، دار بن عفان-السعودية، ط1، 1418هـ (ج4،صص224، 225).

يفهم، ولا سبيل إلى تطلُّب فهمه من غير هذه الجهة"[1]. إلا أن أمر استعمال اللغة كان مضبوطا بضوابط عدة، ولم يترك الأمر على عمومه وإطلاقه، وهذا ما يفسر وجود الاختلاف الشديد بينهم، خاصة بين أهل السنة والفرق الإسلامية الأخرى أخص بالذكر المعتزلة، فإن جزءا معتبرا من الخلاف الحاصل بينهما يرجع أساسا إلى نمط استعمال اللغة. فنجد أن أهل السنة يستندون إلى اللغة، والمعتزلة تستند إلى اللغة إلى أن الخلاف حاصل، والسبب أن كل جهة تستخدم هذه اللغة على ما تراه صوابا عندها، ومن هنا انشغل العلماء بجمع أهم القواعد والضوابط مع ذكر أدلتها وصور تطبيقها، التي تؤطر استخدام اللغة في التفسير حتى لا يسير بها كل واحد على هواه ومزاجه، سنركز فيما يلي على ضابطين منها، مع تبين حضورها في الدراسة التمامية.

1- الضابط الأول: مصاحبة قدسية القرآن لعملية القراءة : قال ابن تيمية -رحمة الله تعالى عليه- :"وقوم قد فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزَل عليه والمخاطِب به ... — حيث — راعوا مجرد اللفظ، وما يجوز عندهم أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم وسياق الكلام"[2] . والذي يهمنا من كلام الشيخ قوله:"من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم"، فمثل هؤلاء إذا أرادوا أن يفسروا مثلا قوله تعالى:﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾(الإسراء:16). فإنه لا يتأتى لهم المراد من السياق، وما يليق بحق الله تعالى من أنه سبحانه لا يأمر بالفحشاء والمنكر، بل ربما فسروها دون وضع اعتبار لهذا، فلا يحفظوا حق الله في ذلك. فلا يجوز قصر التفسير على معاني اللغة العربية فحسب، بل يجب اعتبار ما سيق له الكلام، وملاحظة المراد من النص، ثم **التنبه لحق الله تعالى من تقديس الذات العلية وتنزيه صفاته الكريمة، عما يليق بالحضرة الإلهية**[3]. وبعبارة أخرى، فإن التفسير يقتضي منك التأدب مع كلام الله، فلا تنظر إليه نظرك إلى الكلام الإنساني، بل لابد من عدم إهدار قدسيته. وهذا ينافي ما ظهر من تلك الدعوات التي تدعو إلى النظر إلى النص القرآني على أنه إنتاج لغوي ينتمي إلى بيئة ثقافية محددة لها عاداتها وقوانينها، ومن ثم فهو يخضع للنص كما تخضع نصوص تلك المرحلة. ومن أمثلتها قراءة محمد أركون[4].

---

[1] المرجع نفسه (ج2،ص102).

[2] ابن تيمية(أحمد بن عبد الحليم)، مقدمة في أصول التفسير مع شرحها للدكتور مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، ط2، 1428هـ(ص139، 140).

[3] انظر: عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس-بيروت،ط2، 1406هـ(ص149).

[4] انظر في هذا: سعيد شبار، الخلفيات الفكرية الموجهة للقراءات الحداثية للقرآن الكريم، مجلة إسلامية المعرفة،السنة15، العدد59، 1431هـ (ص62وما بعدها). وفيه دراسة عن رؤية أركون لقراءة النص القرآني.

فيلزم من هذا أن يضع المتجه إلى القرآن الكريم في ذهنه واعتقاده أنه يعامل نصا ليس كباقي النصوص، نصا له قداسته وهيبته، له ميزاته وخصائصه ومن أعظمها اتسامه بسمة الإعجاز والحفظ، التي بها فارق حتى غيره من الكتب السماوية الأخرى. إذن فـ"التنزيل والإعجاز أساكل فهم لهذا النص، بمقتضاها يخرج من دائرة النسبية إلى دائرة المطلق"[1]، ويخرج من دائر العبثية بجميع أصنافها الصياغية أو الإبلاغية إلى دائرة الجدية بكل حقائقها وأصنافها، ويخرج حتى من دائرة أن يعامل كما عوملت النصوص الدينية الغربية، من تعرضها للنقد والتقويم والتصحيح، لأنها وإن كانت دينية فإنها لم تحض بنفس المكانة التي حضي بها القرآن.

فهو نص له خصائصه وتميزه من جميع الجوانب، من أهميتها مستواه الإلهي المحفوظ له. وأمام هذا ينبغي أن تعالج قضية القراءة المعاصرة التي استدعتها التشكلات الثقافية والفكرية والاجتماعية والعلمية والفلسفية الجديدة معالجة تراعي هذه الخصوصيات والمميزات، وأن تجعلها هي البعد الذي يكشف عن شرعية النص حتى يكون إليه الحكم وإليه السلطة. فلا ينسب إليه من المعاني إلا ما يليق به، ولا من التأويلات إلا ما لها به سبب، بـ" هذه النقطة بالذات يقع التواصل بين كلام الله المقدس والعالم البشري، فالوحي متجسما في اللفظ هو الكلام المنزل والقراءة إنما هي إنجاز النص فهي التمثل البشري للوحي، وليس لكل تمثل إلا أن يتلبس بمقتضيات الآن والمكان ومعطياتهما المتشابكة جبرا لا اختبارا"[2]. وفي ضوء هذا السند العقائدي الذي يؤطر عملية القراءة. تنشأ قراءة تسعى –فعلا– إلى ربط النص المقدس ولغة الوحي بالواقع البشري الحي ولغة العصر، فلا تفرغ القرآن من محتواه الإيماني المقصود بالدرجة الأولى ومقاصده التي جاء من أجلها، ولا تغفل عن تلبس الحياة بمعاني جديدة، لا يمكن دفعها أو تجاهلها.

أما الدكتور تمام حسان فإن ما يلمس من كتابه أنه صاحبُ توقير وإجلال وإكبار وتعظيم للقرآن الكريم. فلطالما كان يقرأه خاشعا لجلاله مستمتعا بجماله، كما قال هو عن نفسه في المقدمة [3]، بل ومما قاله في الفصل الذي عقده لـ: صفات القرآن في القرآن ما يلي: "تأتي صفات القرآن الكريم لتعبر عن أمور معينة يمتاز بها القرآن عن غيره من صور الكلام، فهناك صفات تكشف عن حقيقة القرآن وأخرى تحدد تركيبه وثالثة تبين مدى صدقه ورابعة تصف سمو بيانه وخامسة تصف إرشاده للعباد وسادسة تعبر عن بركته، فأما لغة القرآن فأنه نص عربي وأنه في إعجازه أحسن الحديث، وأما حقيقته فهي أنه كتاب وتنزيل ووحي وصحف مطهرة ... وأما من حيث البيان فهو فرقان ونور وهدي.."[4] ، بل ويذهب — في بداية

---

[1] كمال عمران والباجي القمرتي، جدلية النص والمنهج آيات من سورة لقمان نموذجا. ضمن كتاب: في قراءة النص الديني، الدار التونسية، ط1990،(ص86).

[2] المرجع نفسه (ص95).

[3] انظر: البيان في روائع القرآن(ج1،ص7).

[4] المصدر نفسه(ج1،ص469).

تحليله لقصة يوسف كما تعرضها السورة – إلى أن "القرآن ليس كتاب قصص وإنما هو كتاب دعوة وتشريع فإذا جاءت القصة فإنما يأتي بها في إطار الدعوة إلى الإيمان بالله"[1]، ولهذا في نظره "ينبغي أن يكون النظر إلى القصة القرآنية مختلفا عن النظر إلى القصة الأدبية"[2]، لأنها يضيف قائلا: "ليست للمتعة وللتذوق الأدبي المجرد ولا لفرض منهج نقدي عليها أيا كان هذا المنهج، لأن القصة القرآنية فريدة في طابعها وغايتها وتكوينها"، ثم يشير في النهاية إلى أن تحليله للقصة إنما يكون بهذا المنهج حيث يقول: "وبهذا الفهم نبدأ النظر في قصة يوسف عليه السلام، بحيث نتناول ما يبدو لنا أنه الحق من حيث الزمان والمكان والأشخاص والبناء والسرد والحبكة والغاية وأخيرا دلالات النص". هذا يعكس مدى وعي الكاتب برسالة هذا القرآن وارتفاع قدره، أنه ينأى عن أن يكون مثل القصص البشرية، وبالتالي عن أن يعالج بنفس الرؤية في علاجها.

2– الضابط الثاني: يجب حمل النصوص على معهود الأميين في الخطاب: ويدخل تحت هذا الضابط ضابطين اثنين، وكأنهما تفسيرا له، هما:

أ– **لا يجوز حمل ألفاظ القرآن على اصطلاح حادث.**

ب– **القرآن عربي فيسلك به في الاستنباط والاستدلال مسلك العرب في تقرير معانيها** [3] .

ومضمون هذه الضوابط أن للعرب مسالك وطرق في استنباطاتها واستدلالاتها، فلا ينبغي لنا الخروج عنها، بل لا بد من مراعاة طرق الاستنباط المألوفة عند العرب، لأنّ الخروج عنها يؤدي إلى الانحراف والضلال، وقد أحسن من السيوطي توضح هذه المسألة تفسيرها عند تعليقه على قول الشافعي: "ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى أرسطوطاليس"، قال معلقا: "أشار الشافعي بذلك إلى ما حدث في زمن المأمون من القول بخلق القرآن، ونفي الرؤية، وغير ذلك من البدع، وأن سببها الجهل بلسان العرب الجاري عليه نصوص القرآن والسنة، وتخريج ما ورد فيهما على لسان اليونان ومنطق أرسطوطاليس، الذي هو في حيز ولسان العرب في حيز، ولم ينزل القرآن إلا على مصطلح العرب ومذاهبهم في المحاورة والتخاطب والاحتجاج والاستدلال، لا على مصطلح اليونان ولكل قوم لغة واصطلاح، فمن عدل عن لسان الشرع إلى لسان غيره، وخرّج الوارد من نصوص الشرع عليه جهل وضل، ولم يصب القصد، فإن كان في الفروع نسب إلى الخطإ، وإن كان في الأصول نسب إلى البدعة"[4]. وهو هنا لم يقصد –رحمه الله– بالجهل بلسان العرب: الجهل الذي ذكرناه أول الأمر في قول الإمام مالك وقول مجاهد؛ وهو الجهل

---

[1] المصدر نفسه (ج2،ص353).

[2] المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[3] انظر: خالد السبت، قواعد التفسير، دار ابن عفان، ط1، 1421هـ(ج1،صص218، 230، 232،..).

[4] المرجع نفسه(ج1،ص223).

بالكلية، وإنما يقصد به الجهل بطرق الاستدلال والاستنباط عند العرب، لأنّ المأمون وأصحابَه-وكان منهم القضاةُ والشعراءُ والفقهاءُ- كانوا على إطلاع واسع بلغة العرب من حيث ألفاظُها وتراكيبُها، ولهذا قال: وتخريج ما ورد فيهما على لسان اليونان ومنطق أرسطو، أي على سبل الفهم والاستنباط عندهم. لأنَّ لكل لسان خصائصَه وميزاتِه في بيان المقاصد والمعاني. ومن ثم لا يمكن لقوانين لسان أن تكشف عن مضامين لسان آخر، وإن كان بين اللسانين مواقع اشتراك. وبالتالي فإنّ القرآن لا يفهم الفهمَ الصحيح المراد إلا في ضوء أساليب العرب وطرقهم في الاستنباط، وهذا يفتح لنا الباب لمناقشة القضية الأساس من هذه المداخلة ألا وهي؛ الحديث عن إشكالية تبني الدراسات الغربية أو النظريات الغربية وتطبيقها في الدراسة القرآنية عامة. وعن تجربة الدكتور تمام في نظرية القرائن خاصة.

إنّ هذا الأصل يوضح لنا أنه إذا أراد العقل العربي الحديثُ الاستنباطَ من القرآن ودراستَه، أن يدرسه بالطرائق التي ألفتها العرب وتعودت عليها في مناهج فهمها، وأسلوب استنباطها. أن كل فهم ابتعد عن منهجهم أو لم يكن صادرا عن أصولهم الفكرية وقواعدهم في الفهم والبيان، فإن تطبيقه على القرآن محفوف بمخاطر وانزلاقات، لا يُؤمن معها الخروجُ عن مقاصد القرآن وغاياتِه، وذلك لأنّ " روح القرآن عربية، ومزاجه عربي، وأسلوبه عربي، لقوله تعالى:﴿ قرآنا عربيا غير ذي عوج ﴾(الزمر:28). فالنفاد إلى مقاصده إنما يقوم على التمثل الكامل والاستشفاف التام لهذه الروح العربية، وذلك المزاج العربي والذوق العربي، رغم ما له من معان ومرام إنسانية اجتماعية خالدة"[1].

وهذا يعني أن تطبيق أيَّ منهج في الفهم في الدراسة القرآنية يقاس مدى توافقه له من عدم توافقه معه، بمدى قربه من الأصول الفكرية للبيان العربي تأصيلا وسلوكا، إجراءا وتطبيقا، أو على الأقل بمدى تخلص ذلك المنهج من الأفكار الخارجة عن الإطار العلمي المشرك بين الناس جميعا والعالقة به، بمعنى آخر أنه يقتضي منا تطبيق ذلك المنهج إدراكا لحقائق العلم في خصائصها المجرة وفي ماهيتها الصرف، وتخليصها من ملابساتها وظروفها التاريخية والعقدية والأغراض التي تتنكر لها وغير ذلك مما يحفها ويحيطها[2]، أي أن نخلص العلم من هويته العرقية إلى هويته الإنسانية، كل هذا لأجل أن يتسنى إعمالها في سياق حضاري غير السياق الذي أنشأت فيه وغير الذي أنشأت له. حتى لا تكون الغاية من الدراسة والقراءة هي تلك التي " تنطلق من خارج النص تلتقط من العلوم والمناهج ما صح وما لم يصح، وتجعلها متنا والنص حولها هامشا، يدور معها حيث دارت، ولو ابتعدت عن روح النص وتاريخه وسياقه، ومتوهمة أن في ذلك تحديثا لقراءة

---

[1] محمد الصباغ، أصول في التفسير(ص187)، نقلا عن: خلود العموش، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة النص والسياق، عالم الكتب الحديث، ط1، 1429هـ(صص123، 124).

[2] انظر: عزالدين مجدوب، المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة، دار محمد علي الجامي-تونس، ط1، 1998م، (صص42، 43).

النص أو قراءة حداثية للنص"[1]. بل تكون الغاية من ذلك هي الانطلاق من النص نفسه بتفعيل إمكاناته للبحث عن مكنوناته[2]، باعتباره أنه يدعو إلى ذلك في مواضع كثيرة منه؛ منها قوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ (النساء:82)، ومنها أيضا قوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد:24). ... وغيرها من آثار الدالة على ذلك سواء من السنة أو من فعل السلف[3].

ومشروع الدكتور تمام من هذه الناحية يغري بأنه قد استطاع أن يفيد النحو العربي من المنهج الوصفي وأن يتخلص من الأفكار المؤطرة لهذا المنهج، فصاغ نظرية تظهر عليها مسحة تجديد النحو العربي بما لا يضر أصول الفهم المعتبرة عند العرب ودعمها بما يثريها ويغنيها، خاصة عندما نطالع الفصل الثامن من الجزء الثاني والمعنون بـ" النص القرآني يفند أكذوبة الغرانيق"، حيث استهله بتفسير لبعض الآيات في ضوء قاعدة "القرآن يفسر بعضه بعضا"، وجهها توجيها جيدا، في حين أن تطبيق المنهج الوصفي عليها يفضي إليها نتائج تصادم مقاصد القرآن وغاياته.

فعند قوله تعالى:﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(آل عمران:18)، يشير إلى أن الواو فصلت بين هو والملائكة، فلو أنا اعتمدنا على قرب اللفظين لوقعنا في المحظور بأن نجعل الملائكة معطوفين على الضمير وبذلك يكونون آلهة مع الله، سبحانه وتعالى عن الشريك[4]، وهو ما يسلِّم إليه المنهج الوصفي، إلا أن الدكتور تمام لا يسلّم بهذا ويقول:"وإذا كنا نعلم بالاعتقاد الجازم أنهم ليسوا آلهة، أصبح علينا أن نبحث في نطاق الآية نفسها عما يحول دون هذا الخطأ في تفسير المقصود من الآية"[5]، بل يتعقب المفسرين في مواضع عديدة أهملوا فيها هذا المبدأ وهو أن القرآن يفسر بعضه بعضا[6]، هذا يعني أنّ الدكتور غير منجرف وراء المنهج الوصفي يقول ما يملي عليه.

---

[1] سعيد شبار، الخلفيات الفكرية الموجهة للقراءات الحداثية للقرآن الكريم، مجلة إسلامية المعرفة،السنة15، العدد59، 1431هـ (ص60).

[2] انظر: المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] ارجع في هذا إلى: مساعد بن سليمان الطيار، مقالات في علوم القرآن والتفسير، دار المحدّث–السعودية، ط1، 1425هـ (ص217 وما بعدها).

[4] البيان في روائع القرآن (ج2،ص323).

[5] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[6] المصدر نفسه(ج2،ص325).

وبالإضافة إلى هذا فإننا نلمس –ونحن نطالع النظرية وتطبيقاتها في القرآن في الكتابين– قربها الشديد من المنهج المعرفي العربي في الفهم ذلك من خلال :

– المحافظة على العديد من المصطلحات ومدلولاتها ، مثل الإعراب، والرتبة، ...

– استدراك نقائص في النحو العربي من مجالات معرفية قريبة الصلة بالنحو العربي، ومن المجال المعرفي للعرب أنفسهم، واستغلالها في ضوء المنهج الوصفي للارتقاء بالنحو العربي، ذلك من خلال استفادته من أصول الفقه مبحث القرائن واستغلاله في الوصف.

قلت: كل هذا يغري وكأن الدكتور تمام قد خلص المنهج الوصفي من كل خلفياته وملابساته، واستفاد منه فقط الجزءَ العلمي المجرد وأفاد به النحو العربي، إلا أن الوقوف على بعض المواطن من كتابه تكشف أن الدكتور تمام كان يسير في تفسيره للتراكيب القرآنية والإفادة منها في النحو العربي، على ضوء الخلفيات المعرفية للمنهج الوصفي وأهدافه عند اللسانيين الغربيين، وهذا يعكس بجلاء محاولة "التخلص من حركة تقليد لإرث ذاتي والسقوط في حركة تقليد موازية لإرث تاريخي غيري، وكلاهما يجعل العقل رهينة، ولا يسعف في عملية النهوض والبناء الذاتي المستوعب والمتفاعل مع كل الخيرات البشرية"[1]. وإن كانت هذه عند تمام بصورة غير واضحة من أول الأمر، وبصورة أقل خطورة مما هي عليه عند أصحاب الاتجاهات الفلسفية والأدبية والاجتماعية. أو أن أضرارها في جانب التقعيد اللغوي يكون أقل حدة من ضررها في الجوانب الفلسفية والأدبية والاجتماعية.

ويظهر التأثر عند تمام من خلال اتجاهه إلى نقد النحو العربي، بنفس الأفكار التي اتجه بها اللسانيون الغربيون إلى نقد تراثهم اللغوي، من كون أن النحو العربي كان نحوا معياريا، متأثرا بالفلسفة والنطق، كما تأثر النحو الأوروبي بالنحو الإغريقي، وجعل حاجة العربية إلى منهج وصفي كحاجة الدراسة الأوربية إلى منهج وصفي[2]. ويكفي في هذا أن أوقفك عند قوله: "ولقد يسيء النحاة في بعض الحالات فهم دلالات الإعراب بسبب تمسكهم بفكرة العامل دون نظر إلى القيم الأسلوبية للجملة، وقد حدث ذلك بصورة خاصة في فهمهم للمصادر المنصوبة على الإنشاء، والتي عدوها منصوبة بواجب الحذف تمسكا منهم بفكرة العامل النحوي، ففي قوله تعالى:﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ

---

[1] سعيد شبار، الخلفيات الفكرية الموجهة للقراءات الحداثية للقرآن الكريم، مجلة إسلامية المعرفة، العدد59، (ص62)

[2] ارجع في ذلك إلى: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها،(ص13). وكتاب: اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب–مصر، ط4، 1421هـ، (ص11، 12 ، ... وغيرها)، وأفكار التي جاء بها في هذه الكتب هي التي طبقها في دراسته القرآنية. وانظر: في الدراسة النقدية التي قدمها الدكتور عزالدين مجدوب في كتابه: المنوال النحوي العربي (ص 42 ...48).

مُنكَرُونَ ﴾(الذاريات:25)، يحلو للنحاة أن يقدروا ناصبا للمصدر؛ فيقولوا: إن أصله نسلم سلاما..."[1]. ثم يرى أنه من الواجب العدول عن هذا النوع من التحليل؛ لأنه يفسد أسلوب الجملة، فينقلها من الإنشاء إلى الخبر، ويقترح أنه "يكفي في هذه الحالة ونحوها أن نعرب المصدر: منصوبا على معنى الإنشاء، وننحو بهذا من تحريف الأساليب"[2]. بهذه البساطة دون أن يوضح كيف نعرب "سلامٌ" الثانية المرفوعة، لأن الحذف فيها أيضا واجب وإن كان لا يغير أسلوب الجملة، إلا أن عدم الجري على التقدير في أول يفرض متابعته في الثاني.

إذن: واضح في هذا محاولة الهروب بالنحو العربي من التقدير الواجب الذي يعد حسب رأي الدكتور هو نوع من تأثر بالحجج المنطقية، كما تأثرت الدراسات الأوربية به. على الرغم من الجدلية القائمة في هذا الموضوع بين مثبت وبين ناف، إلا أن هناك شبه اتفاق على أن النحو العربي كان سليما من هذا التأثر في مراحله الأولى، وهي مرحلة التقعيد الأساسية، هذا مع الإقرار بأنه ليس كل المبادئ التي يستند إليها العقل في تعامله المادة المعرفية تعد منطقا إغريقيا وإن توافقه معه، لأن مجرد التوافق لا يعني بالضرورة الأخذ أو التأسيس عليه، لأن تلك من مبادئ التي لا يمكن لأي عقل صحيح أن يستغني عنها، فهي أنماط عقلية مشتركة بين الناس جميعا.

ثم إن التعلق بهذه الخلفية لهذا المنهج قد حرمت الدكتور من أن يحاول مراجعة هذه القضايا مراجعة تستند إلى الأصول النحوية العربية وتكون أقوى من الناحية التحليلية، وأبلغ في الناحية المعنوية من النظرة التقديرية، أو على الأقل أنها سدت الطريق أمام تصور تخرجات أخرى يرعى فيها الجانب الوصفي المنشود للغة باستغلال السياق اللغوي والعقدي والثقافي للنص، بدل الانزياح إلى هذه الوصفية الجامدة التي لا تتلاءم مع القيمة الإبلاغية للقرآن الكريم، وتأمل كيف استطاع ابن القيم أن يعطي تفسيرا وصفيا بديعا لهذا التركيب، لما كانت غايته في ذلك هي حمل النص على أحسن الوجوه، ومنطلقه في ذلك قراءة هذا النص بما يجود به هذا النص من حكم وأحكام، فتحفظ للنص جوه الديني وللنحو هيكله التأصيلي، وسهل على المتعلم الفهم وذلك بقوله بعد أن ذكر قول النحاة في المسألة قال: "وعندي فيها جواب أحسن من هذا، وهو: أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة، فنصب قوله "سلاما" انتصاب مفعول القول المفرد، كأنه قيل: قالوا قولا سلاما، وقالوا سدادا وصوابا، ونحو ذلك، فإن القول إنما تحكى به الجمل، وأما المفرد فلا يكون محكيا به، بل منصوب به انتصاب المفعول به، ومن هذا قوله تعالى: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً (الفرقان63)، وليس المراد: أنهم قالوا هذا اللفظ المفرد المنصوب، وإنما معناه: قالوا قولا سلاما، مثل سدادا وصوابا، وسمي القول سلاما، لأنه يؤدي معنى السلام

[1] البيان في روائع القرآن(ج1،ص21).

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ويتضمنه، من رفع الوحشة وحصول الاستئناس. وحكى عن إبراهيم لفظ سلامه، فأتى به على لفظه مرفوعا بالابتداء محكيا بالقول، ولولا قصد الحكاية لقال: سلاما بالنصب، لأن ما بعد القول إذا كان مرفوعا فعلى الحكاية ليس إلا، فحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية سلام إبراهيم ورفعه ونصب ذلك إشارة إلى معنى لطيف جدا، وهو أن قوله:"سلام عليكم" من دين الإسلام المتلقى عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء، وأنه من ملة إبراهيم التي أمرنا الله تعالى باتباعها، فحكى لنا قوله؛ ليحصل لنا الإقتداء به والإتباع له، ولم يحك قول أضيافه، وإنما أخبر به على الجملة دون التفصيل والكيفية"[1]. ونقلت لك هذا النص على طوله ليتسنى لنا المقارنة بين من يكون قصده شرح النص في ضوء جوه وسياقه الحضاري، وبين من يفسر النص وقصده أن تسلم له قواعد المنهج الذي أراد تطبيقه على النص. وقد يكون تلك القواعد خلفيات دعت إلى نشأته.

من هنا يمكن أن نقول ثانية أن "ثمة حاجة إلى تحديد القراءة، ولكن النظرة إليها تختلف بين من ينطلق من النص نفسه بحثا عن مكنوناته وتفعيلا لإمكاناته، باعتباره رسالة ختم وهيمنة وتصديق، وبين من ينطلق من خارج النص يلتقط من العلوم والمناهج ما صح وما لم يصح، وتجعلها متنا والنص حولها هامشا، يدور معها حيث دارت، ولو ابتعدت عن روح النص وتاريخه وسياقه، متوهمة أن في ذلك تحديثا لقراءة النص أو قراءة حداثية للنص"[2] .

خاتمة: على الرغم من كل ما قلناه على الأستاذ الدكتور تمام حسان، فإنه يبقى قمة من القمم الشامخة في الدراسات اللغوية الحديثة، وتعد تجربته هذه من أنفع التجارب التي استطاعت أن تتجاوز الكثير من العقبات في الاستفادة من الدراسة الحديثة، ولذا فهي أنموذج يحتذى في ذلك، وليس لمثلي أن يقيّم آراء الأستاذ الدكتور، وإنما هي أراء لمجموعة من الدارسين حاولت الجمع بينها وتأليفها، لي ولأمثالي من الباحثين، قصد المحافظة على حرمة كتاب الله تعالى وقداسته ومكانته، فإن حرمته تفوق أي حرمة، قداسته فوق كل المخلوقين، ومكانته من مكانته المتكلم به –سبحانه وتعالى–. والله أعلم.

---

[1] ابن القيم الجوزية(محمد بن أبي بكر)، بدائع الفوائد، تح: علي بن محمد العمران، مطبوعات المجمع الفقهي–السعودية، دط (مج2، صص638، 639).

[2] سعيد شبار، الخلفيات الفكرية الموجهة للقراءات الحداثية للقرآن الكريم، مجلة إسلامية المعرفة، العدد59، (ص60).

المصادر والمراجع:

1- ابن تيمية(أحمد بن عبد الحليم)، مقدمة في أصول التفسير مع شرحها للدكتور مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، ط2، 1428هـ.

2- ابن القيم الجوزية(محمد بن أبي بكر)، بدائع الفوائد، تح: علي بن محمد العمران، مطبوعات المجمع الفقهي- السعودية، دط.

3- تمام حسان، * البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، ط2، 1420هـ.

* خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم، عالم الكتب- القاهرة، ط1، 1427هـ.

* اللغة العربية معناها ومبناها، دار عالم الكتب- القاهرة، ط3، 1418هـ.

* اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب-مصر، ط4، 1421هـ

4- خالد السبت، قواعد التفسير، دار ابن عفان، ط1، 1421هـ.

5- خلود العموش، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، ط1، 1429هـ.

6- الشاطبي(أبو إسحاق إبراهيم بن موسى)، الموافقات، ضبط وتح: مشهور بن حسن، دار بن عفان- السعودية، ط1، 1418هـ.

7- الزركشي(محمد بن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث- القاهرة،1427هـ.

8- عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس-بيروت،ط2، 1406هـ.

9- عبد القادر السعدي، أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام الشرعية من آيات القرآن التشريعية، دار عمار،عمان ط1، 1421هـ.

10- عزالدين مجدوب، المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة، دار محمد علي الجامي-تونس، ط1، 1998م.

11- مساعد بن سليمان الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ط1، 1422هـ.

مقالات:

1- تعليم النحو بين النظرية والتطبيق، ضمن مقالات في اللغة والأدب للدكتور تمام حسان، عالم الكتب-القاهرة، ط1، 1427هـ.

2- جدلية النص والمنهج آيات من سورة لقمان نموذجا، كمال عمران والباجي القمرتي، ضمن كتاب: في قراءة النص الديني، الدار التونسية، ط1990.

2- الخلفيات الفكرية الموجهة للقراءات الحداثية للقرآن الكريم، سعيد شبار، مجلة إسلامية المعرفة،السنة15، العدد59، 1431هـ.